«وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها»

مدخل إلى فقه النعمة

عبد الإله ميقاتي

طبعة ثانية مزيّدة ومنقّحة

الإهداء

إلى من أضاء شعلة الإيمان في قلبي
وزرع حبًّا للخيرات
إلى روح والديّ الحبيبين رحمهما الله
وأثابهما في نعيمه
إلى عائلتي المحبة ..
كانت لي دائماً نعم السكن
أحاطتني بالمودة والوداد
وكانت لي خير سناد ...
إلى إخوتي وأخواتي الأحباء ..
ترعرعنا معاً ..
وتعاهدنا على تقوى الله والبر بالوالدين ..

شكر وتقدير

(الطبعة الثانية)

إلى كلّ الذين قرأوا الكتاب وشجّعوني على المتابعة في الكتابة حول الموضوع، وأخصّ بالذكر سماحة مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة الشيخ الدكتور محمّد رشيد قبّاني، الذي اتصل بي هاتفيًا بعد أن قرأ الكتاب وأثنى على ما جاء فيه واعتبره ضرورة في كلّ بيت، ليقرأه كلّ شابّ مسلم وشابّة مسلمة، وسماحة مفتي طرابلس والشمال السابق الشيخ الدكتور طه الصابونجي الذي ناقشت معه بعض الفصول بعد قراءته للكتاب في جلسات خاصة، كما شارك مشكورًا بمداخلة قيّمة في مناقشة الكتاب التي دعت إليها جامعة الجنان.

كما أخص بالشكر والتقدير جامعة الجنان في طرابلس بشخص رئيسها الأستاذة الدكتورة منى حداد يكن ومجلس عمدائها الذين أقاموا جلسة مناقشة للكتاب، منحوني على أثرها شهادة الدكتوراه الفخريّة من كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، في اختصاص الثقافة الإسلاميّة.

والشكر موصول كذلك إلى كلّ الذين قرأوا الكتاب قراءة نقديّة هامّة، ودوَّنوا لي ملاحظاتهم وأخص منهم العلّامة الدكتور زغلول النجار، الذي كتب مشكورًا تقديمًا للطبعة الثانية، والدكتور محمّد نديم الجسر، والدكتور عبد الفتاح

كبّارة، والأستاذ كمال خوري والدكتور رهيف الأيوبي وغيرهم...

والشكر أولًا وآخرًا إلى جميع الذين قرأوا الكتاب، ووجدوا فيه ما كان يختلج في صدورهم من شعور بالنعمة، فجاء الكتاب تعبيرًا عن ذلك.

والله وليّ التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

(الطبعة الثانية)

بقلم الدكتور زغلول راغب محمّد النجار:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأخصّ منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين، سيّدنا محمّد النبيّ الأمين، الذي ختم الله - تعالى - ببعثته النبوّات، وأكمل الرسالات، ولذلك تعهّد بحفظ وحيه الخاتم، حتى يتحقّق عدله المطلق، الذي قال فيه: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الإسراء: ١٥] فصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين (اللهم آمين).

وبعد،

فهذا كتاب جديد في عنوانه، جيّد في محتواه، لأنّه تذكير لقارئه بمعرفة فضل الله - تعالى - عليه من خلال استرجاع عدد من النعم التي أسبغها هذا الإله الخالق العظيم عليه خاصّة، وعلى الإنسانيّة عامّة: ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ** ﴾ **[إبرهيم: ٣٤].**

وقد وفّق الله - سبحانه وتعالى - أخي الكريم الأستاذ الدكتور عبد الإله ميقاتي بعرض عدد من تلك النعم الخاصّة والعامّة عرضًا سهلًا سلسًا مزوّدًا بالأدلّة الشرعيّة والعلميّة، وبالمراجع التي رجع إليها بدقّة منهجية صحيحة، وإن كنتُ أرى أنّه كان من الأنسب جعل عنوان الكتاب: «**مدخل إلى فقه شكر النعمة**» بدلًا من «**مدخل إلى فقه النعمة**» وذلك لأن من معاني الفقه هو حسن الفهم، والذي يفهم

قيمة النعم لا بد من أن يقوم بواجب الشكر عليها وهو يقدّرها حقّ تقديرها، والذي لا يفهم قيمة النعمة قد يرفل فيها ولا يدرك لها قدرًا، ومن هنا لا يُحسنُ القيام بالشكر عليها، والفقه في الحالين منسوب إلى الإنسان لا إلى النعمة ذاتها.

كذلك أرى أنّه كان من الأفضل البدء بالنعم الخاصة قبل النعم العامة، وذلك لأن النعم الخاصة هي أقرب إلى إدراك الإنسان من النعم العامّة، فنعمة الإسلام بركائزه الأربع (العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات)، ونعمة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، ونعمة الإحسان التي لخصها المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - بقوله الشريف: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك» هي من النعم الخاصّة وهي لذلك أقرب إلى إدراك الإنسان من نعمة خلق الكون وما فيه من المخلوقات ومن السنن والقوانين والتسخير، على عظم ذلك وسبقه لخلق الإنسان.

وبالإضافة إلى ذلك فإن من النعم الخاصة (وهي من كثرتها لا تحصى) نجد أن نعمًا مثل نعمة الأمن، نعمة العافية، نعمة الرزق، نعمة العلم والحكمة، نعمة القناعة والرضى، نعمة الجاه والسلطان، نعمة حب الخلق للإنسان، وحبّه خدمة الخلق، كلّ هذه النعم أقرب إلى إدراك الإنسان من نعم الله الكبرى عليه من مثل نعمة خلق الكون، ونعم الله الظاهرة في الحكمة من كلّ تشريع شرعه الله - تعالى - لعباده - على أهمية ذلك وروعته - خاصة وأن البابين الثاني والثالث هما من أجمل ما ورد في الكتاب.

أما نعمة الخلق فأرى أن ترتّب على النحو التالي:

١- خلق السماوات والأرض.

٢- خلق الغلافين المائيّ والهوائيّ للأرض.

٣- خلق الحياة النباتيّة.

٤- خلق الحياة الحيوانيّة.

٥- خلق الإنسان.

وتسخير الخلق للإنسان - ذلك المخلوق المكرّم - هو جزء من قوانين الخلق، لا يتخلّف، ولا يتعطّل، ولا يتوقف ما دامت الحياة الدنيا، ولولا ذلك ما تمكّن

الإنسان من التواجد على الأرض.

وإن رأى أخي الكريم الأستاذ الدكتور عبد الإله ميقاتي ضرورة لفصل نعمة الهداية الربانيّة للإنسان عن النعم الخاصّة، ومعالجتها في باب مستقل فكان يفضّل أن تأتي بعد النعم الخاصّة على الرغم من كونها أفضل نعم الله - تعالى - على خلقه.

هذا، وقد جاء الكتاب في سلاسة أسلوبه، ودقة توثيق المعلومات فيه، وجمال إخراجه عملًا أدبيًا راقيًا، أسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يجزي كاتبه بخيري الدنيا والآخرة، وأن يجعل هذا العمل ثقيلًا في موازين حسناته، وأن ينفع به العباد والبلاد، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وهو - تعالى - نعم المولى، ونعم المجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

طرابلس الفيحاء في :

١٤٣٠/٥/٢٨ هـ

٢٠٠٩/٥/٢٣ م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. زغلول راغب محمد النجار

رئيس لجنة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة ج.م.ع.

عضو مجلس إدارة الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي

مقدّمة الكتاب
(الطبعة الثانية)

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام وجعلنا مسلمين. الحمد لله لا نحصي ثناءً عليه...

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين جاء بالحقّ من ربّه هاديًا ومبشّرًا ونذيرًا، أرسله ربّه رحمة للعالمين كافة، فبلَّغ رسالة ربّه خير تبليغ...

وبعد،

فلقد أردت لهذا الكتاب أن يكون بحقّ مدخلًا إلى فقه النعمة، وبداية رحلة علميّة لا نهاية لها في سبر أغوار نعم الله علينا. وقد آليت على نفسي متابعة هذا الموضوع والكتابة فيه كلّما تيسر لي ذلك. وقد وفّقني الله عز وجل لكتابة أربعة فصول جديدة هي: الموت نعمة أم نقمة؟، نعمة الغذاء، نعمة الحكمة، والتكامل بين النعم الدنيوية والنعم الأخروية، مع بعض الإضافات المحدودة في بعض الفصول الأخرى.

كما طلب إليّ عدد من الإخوة والمحبّين الكتابة حول عدد كبير من النعم الأخرى منها على سبيل المثال لا الحصر، نعمة الألم، نعمة الاستغفار، نعمة الاختلاف، نعمة الأخوة، نعمة الحريّة وغيرها، وكلّها مواضيع شيّقة وهامّة جدًا، أرجو الله العليّ القدير أن يوفّقنا جميعًا لإظهارها والكتابة عنها في قالب علميّ وإيمانيّ سليم.

ولقد سرّني ما قرأته في مجلّة الوعي الإسلامي التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة في دولة الكويت، في مقالة بقلم الدكتور ماهر عبّاس جلال تحت عنوان: «نعمة الألم بين الطبّ والدين»، حيث يعرض الباحث للفوائد والإيجابيات المتشعبة للألم، وبعضها ماديّ، وبعضها نفسيّ معنويّ، وبعضها

يتحقّق للفرد، وبعضها يتحقق للجماعة أو الأمّة. والمقالة موجودة على الموقع الإلكتروني الخاصّ بالكتاب www.alhamdulillah.org في باب «قراءات مختارة».

ما أودّ التوقف عنده في مقدّمة الطبعة الثانية، هو ما قاله لي المستشرق الألمانيّ المسلم الدكتور مراد هوفمان عندما التقيته في أحد المؤتمرات، وتكلّمنا معًا حول موضوع الكتاب. وكان رأيه بأن كلّ ما خلق اللهُ تعالى هو في ذاته نعمة، على الشكل الذي خلقه الله تعالى فيه، ولو كان على غير ذلك لقلنا عنه أيضًا إنه نعمة، على الشكل الآخر. فوافقته على ذلك، خصوصًا أنّ الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام يقول: «عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّه له خير، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له»[١]. ذلك أنّ الأصل في الشعور السليم بالنعمة هو الإيمان بأنها من الله. وإذا ما ملأ الإيمان قلب الإنسان، تراه متقلّبًا في نعم الله عليه، مقرًّا بها، شاكرًا لها، وعاملًا على أداء حقّها كما أمره الله تعالى، حتى الابتلاء بالمرض أو المصيبة فإنّه يرى في صبره عليه واحتسابه أجرًا ونعمة كبيرة.

يروى أن بكر بن عبد الله لحق حمَّالًا عليه حِملُهُ، فسمعه يقول: الحمد لله وأستغفر الله، فقال: فانتظرتُه حتى وضع ما على ظهره، وقلتُ له: أما تُحسِنُ غيرَ ذي؟ قال: بلى، أحْسِنُ خيرًا كثيرًا؛ أقرأُ كتاب الله، غيرَ أنّ العبد بين نعمة وذنب، فأحمدُ الله على نعمائِه السابغة، وأستغفره لذنوبي. فقلت: الحمّال أفقه من بكر[٢].

عبد الإله ميقاتي

(١) رواه مسلم، رقم ٢٩٩٩.

(٢) الشكر لله عز وجل. لابن أبي الدنيا. مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم العلامة الأزهري
الشيخ محمّد جمال الدين هاشم محمود

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والطّوْل والإنعام، من بحر جوده أكرم فأنعم، ومن فيض عطائه أنعم فأكرم، والصلاة والسلام على رحمته المهداة، ونعمته المسداة سيدنا محمّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه الأئمة التقاة.

وبعد:

فإن الله - تعالى - له الأسماء الحسنى، والصفات العظمى. صفاته كذاته قديمة، فلم تتجدد له صفة، ولم يحدث له اسم فهو الخالق قبل أن يَخْلُق، والرازق قبل أن يَرزق، والكريم قبل أن يُكرم، والمنعم قبل أن يُنعم. فسبقت نعمته على عبده قبل خلقه، فجاء الإنسان فوجد نعمة ربّه سابغة: كونًا رحيبًا وعيشًا رغيدًا، سماواتٍ مرفوعة، وأرضًا موضوعة...، وجبالًا أرساها، وبحارًا أجراها... وجنات أنبتها، وحيوانات ذللها... بفضله خلقها، وبنعمته سخَّرها. قال - تعالى - : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾[لقمان: ٢٠]. ومنَّ على الإنسان دون سائر مخلوقاته بالتركيب البديع، والهيئة الحسنة؛ فجاء أجمل خلقه، وأبدع مبتدعاته، وميزه بالعقل والتفكير والنظر والتدبير؛ يدرك الآيات،

ويفهم الإشارات.

ولذلك فمن فقه نعمة الخلق وتسخيره، والعقل وتفكيره، أن يتدبّر العبد في كون ربّه الفسيح وما صنع فيه، وأن يتدبّر نفسه وما أودع الله فيها، حتى يصل من وراء ذلك إلى معرفة ربّه والإيمان به.

ولذلك قال - سبحانه - : ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠** ﴾ **[الغاشية: ١٧ - ٢٠].** وقال - تعالى - : ﴿ **وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١** ﴾ **[الذاريات: ٢١].**

ثمّ إنّ من أعظم ما يتعلق بقوة نعمة الخلق والتسخير أن يتفكر العبد المؤمن في كيفية الاستفادة من هذه الآيات الكونيّة ليستخدمها الاستخدام الأرشد، وليستغلّها الاستغلال الأمثل، خدمة للبشرية حتى لا ينفرد غير المؤمنين باستغلالها وتسخيرها في غير ما يرضي الله. وما تخلف المسلمون، وتقدّم غيرهم إلّا عندما أهملوا فقه الكون وآياته، وهم الذين أُمروا بالتفكر فيه وحُذِّروا من إهماله. قال - تعالى - : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١** ﴾**[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].** وقال النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - : «ويل لمن قرأ هذه الآيات ثمّ لم يتفكر فيها» (ابن كثير ط١ ص٤٤١).

ولقد جاءت نعم الله متعدّدة الأشكال مختلفة الأنواع فناسب أن يكون التنويع في أسمائها:

فهي **«نعمة»**، كما قال - تعالى - : ﴿ **وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ **[البقرة: ٢٣١].**

وهي «**نعماء**»، كما قال سبحانه: ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ** ﴾ **[هود: ١٠]**.

وهي «**آلاء**» جمع «**إلْى**»، قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ **فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴿١٣﴾ ﴾ **[الرحمن: ١٣]**.

وهي «**منَّة**»، قال - جل شأنه - : ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ** ﴾ **[إبراهيم: ١١]**.

وبين هذه الألفاظ فروق بيّنها صاحب «الفروق اللغويّة»؛ فالنعماء: هي النعمة الظاهرة (ص ٥٤٦). وأما المنَّة: فهي النعمة المقطوعة من جوانبها كأنّها قطعة منها، ولهذا جاءت على مثال قطعة (ص ٥١٥)، وأما الآلاء فهي التي واحدها «إلْى» وهي النعمة التي تتلو غيرها.

وعندما أراد - سبحانه وتعالى - أن يعبر عن كثرة نعمه التي جلّت عن الإحصاء عبّر عنها بالمفردة النكرة، فقال - سبحانه - : ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ** ﴾ لتشمل جميع النعم ظاهرة وخافية، متوالية ومقطوعة من جوانب نعمة أخرى فهي كما قال المفسرون، اسم جنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، وأيضًا أفردت لوحدة مصدرها وهو الله - جل وعلا - ولمرجعها إلى معنى واحد وهو «المسرّة». فالنعمة هي المسرّة كما جاء في القاموس المحيط (ص ١٥٠١).

ثمّ إنّ العبد، إذا تأمل صفات الله - تعالى - وهي صفات جمال، وصفات جلال، وجد النعمة من صفات الجمال ظاهرة فهي تشعر الإنسان بالأنس والأمن والرحمة والود والعفو والرأفة فهي تربّي فيه الرجاء. وأما في صفات الجلال فيجد النعمة باطنة؛ فهي تشعره بقوة ربّه وبطشه وقهره وجبروته، وهي تربي فيه الخوف من الله، وذلك ليهابه فيخشى مخالفته، ويحذر معصيته، ويخاف عقوبته؛ ذلك للاستقامة على أمر ربّه حتى يبلغ رضا مولاه ويأمن عقوبته. ونعمة أخرى من صفات الجلال على العبد تجعله يعيش عزيزًا كريمًا لا يخشى ولا يذل ولا يخضع

لأي قوي أو جبّار في الأرض لأنّه عبد القويّ، وعبد الجبار، وإن شاء الله قهر كلّ جبّار وكل قويّ طغى على عبده.

ومن فقه النعمة أن يرى العبد من خلال المحنة المنحة، ومن خلال البلاء النعمة، فرُبَّ الذي يراه نقمة في الحال هو عين النعمة في المآل، وفي قصة النبيّ موسى مع الخضر عليهما السلام مصداق ذلك، فقد كان خرق السفينة بلاء في حاله، نعمة في مآله، وكذلك قتل الغلام قال - تعالى - : ﴿ **أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾** ﴾ **[الكهف: ٧٩ - ٨١].**

ولا يفقه ذلك إلّا المؤمنون حقّا، فهذه امرأة صالحة عثرت فانقطع ظفرها فضحكت. فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: «إن لذّة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه».

قال الشاعر:

عذابه فيك عذب وبعده فيك قرب
وأنت عندي كروحي بل أنت منها أحب
حسبي من الحب أني لما تحب أحب

ثمّ إنّ من تمام فقه النعمة بأن يشكر العبد نعمة ربّه عليه، وذلك بأن يعلم أن النعمة من الله: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ **[النحل: ٥٣]**، وألّا يعمل بها إلّا في طاعة الله لا في معصيته، قال الجنيد: «الشكر: أن لا تعصي الله بنعمه»، (الرسالة القشيرية ص ٨١).

وأن يجتهد في طاعة ربّه بالأعمال الصالحة والطاعات الدائمة فقد قال بعض السلف: لما نزل قول الله - تعالى - : ﴿ **ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا** ﴾ **[سبأ: ١٣]** «لم يأت عليهم ساعة من ليل أو نهار إلّا وفيهم مُصلّ يصلّي» (ابن كثير: ج٣، ص ٥٢٨).

ثمّ يرى بعد ذلك أنّه مقصر في شكر نعمة ربّه عليه، لأنّه كما أنّ نعم الله

جلَّت عن الحصر والعد، فقد جلَّت عن الشكر والحمد، ولذلك فإنّ الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يعلم حدود نعمه وما يكافئها من الشكر والحمد؛ فحمد نفسه قبل خلقه فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ومهما ألّف المؤلّفون وكتب الكاتبون فلن يحصوا نعمة الله تعالى، ومهما عمل العاملون وشكر الشاكرون فلن يبلغوا شكره، ومهما تدبّر المتدبّرون، وفكّر المفكّرون فيما أنعم الله به فلن يبلغوا حقّ فقهه.

ولذلك كان من نعمة الله على المؤلّف - حفظه الله - أن وفقّه إلى عنوان كتابه، فلم يسمّه «فقه النعمة»، وإنّما سمّاه **«مدخل إلى فقه النعمة».** وكان اختياره لهذا العنوان ليكون الكتاب دعوة إلى أن يلج هذا المجال كلّ مفكر مؤمن، وكل عالم من كلّ التخصصات الدينيّة والعلميّة، العمليّة والنظريّة.

ويكفي المؤلّف أن خاض غمار هذا الموضوع فاستخرج كنوزًا من كنوزه، ودل على مواطن لها أخرى، ولقد جاء كتابه هذا سادًا ثغرة من ثغرات المكتبة الإسلاميّة الحديثة - والفضل لمن سبق - ، وهو بحق كتاب لا تستغني عنه مكتبة عالم أو باحث عن الحقيقة في ملكوت الله تعالى؛ فقد جاء الكتاب وافيًا في موضوعه ومقصوده.

وإنّ الكتاب جاء نعمة إيمانيّة شكرًا للنعمة الإلهية، فهو سياحة مباركة في نعم الله السابغة.

ولقد شرّفني المؤلّف الكريم بأن أتاح لي أن أكتب هذه السطور مدخلًا إلى كتابه وكالمقدّمة لفصوله، وهو الكتاب الذي لا يحتاج إلى من يقدّمه، أو يقرّظه.

فبارك الله في بنانه ويراعه، وفكره وجنانه، وجعل عمله عملًا مشكورًا متقبلًا.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كتبه/

الشيخ محمّد جمال الدين هاشم محمود

المدرس بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
بقلم د. صفوت حجازي

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمّد بن عبد الله النبيّ الأمين وعلى آله وصبحه أجمعين.

ممّا يستهويني في هذه الحياة أن أقرأ لغير المتخصّصين في الشريعة الإسلاميّة عندما يكتبون فيها.

ولمّا وقع في يدي هذا المؤلّف، وهو للدكتور المهندس عبد الإله ميقاتي، وهو غير متخصص في الشريعة، أيقنت أنّي سأستمتع بكتاب جيد.

وما إن بدأت في القراءة إلّا وجدتني أبحر في سفينة من البلاغة والعلم، في بحر سهل بلا أمواج ولا تقلبات، أتنقل بين شواطئه على هدى عقل المؤلّف الذي وجدته يضع مصابيح ومنارات على شواطئ هذا البحر الجميل الرائع.

بورك الكتاب وبورك الكاتب.

وكان توفيقًا من الله للكاتب أن شرح صدره للحديث عن هذه النعم بالذات وتحديدًا، حيث أرى أنّها من النعم المؤثرة جدًا في سلوك الإنسان وأخلاقه، وهذه قضيتي التي أتمنى أن نلتفت جميعًا إليها... **السلوك والأخلاق**.

توفيق عظيم وسلاسة في الإبداع، وعلم هادئ جميل نافع للناس.

حقًّا، قد نجد في النهر ما لا نجد في البحر.

طرابلس - الشام

الجمعة ١٤/٣/٢٠٠٨

كتبه

د. صفوت حجازي

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

عضو هيئة كبار العلماء بالمجمع العلمي

لبحوث القرآن والسنة

مقدّمة الكتاب

(الطبعة الأولى)

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الحمد لله ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت يا ربنا من شيء بعد، أنت أهل الثناء والمجد، أحقّ ما قال العبد، وكلّنا لك عبد، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

«الحمد لله الذي لا يبلغ مِدْحَتَهُ القائلون، ولا يحصي نعماءه العادّون، ولا يؤدّي حقه المجتهدون».

«الحمد لله استتمامًا لنعمته، واستسلامًا لعزَّته، واستعصامًا من معصيته».

«الحمد لله غير مقنوطٍ من رحمته، ولا مَخْلُوٍّ من نعمته ولا مَيْؤُوسٍ من مغفرته ولا مُسْتَنْكَفٍ عن عبادته».

«الحمد لله كلما وَقَبَ لَيْلٌ وغَسَق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق، والحمد لله غير مفقودِ الإنْعام ولا مكافَأ الإفضال»[1].

الحمد لله الذي أَرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه، أرسله بالحق هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وأنزل عليه الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدًى وموعظة للمتقين.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بأمره صادعًا وبذكره ناطقًا وإلى صراط الله المستقيم داعيًا وسراجًا منيرًا.

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وباتّباع أوامره تُدْخَلُ الجنَّات،

---

(١) نهج البلاغة: الشريف أبو الحسن الرضي (من الكلام المنسوب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه).

وبالانتهاء عن نواهيه تُجْتَنَبُ الزلّات، وبالاعتصام بحبله المتين تكون النجاة، وبشكر نعمته تكون الزيادات.

والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين، بعثه الله رحمة للعالمين، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وكشف الله به الغمَّة؛ دعا الناس لأكمل دين وأتمّ رسالة، وبيَّن لهم الحرام والحلال، وحضَّهم على الوسطيّة والاعتدال.

دلَّ الناس على فضائل التوحيد والإيمان، ونهاهم عن الشرك وعبادة الأوثان، وحبَّب إليهم العدل والإحسان، وكرَّه إليهم الفسوق والعصيان، ونهاهم عن الظلم والطغيان، ودعا الناس إلى العلم والبيان، وبدَّد الله به الجهل والحرمان؛ أظهر للناس نعم الله عليهم، ودلّهم على طريق الشكر والعرفان، وأرشدهم إلى سبيل الزيادة، وحذَّرهم من الجحود والكفران.

وبعد:

ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب، هو ما نراه اليوم - وللأسف - من طغيان للحياة المادّية بجميع ألوانها، على عقول كثير من الناس فباتوا لا يرون من الدنيا ونعيمها إلّا الكسب المادّي، وسيطرة الغرائز والشهوات على ما سواها من أهداف وغايات، ونسوا، أو كادوا ينسون نعم الله الوافرة، التي لا تعدّ ولا تحصى، وهم يتقلّبون فيها ليلًا ونهارًا؛ ومن افتقد نعمة فهو يذكر ما افتقد ويتحسّر عليه، وينسى أو يغفل عن باقي النعم، لأنّه قد تعوّد عليها وألفها فأصبح لا يكاد يراها.

فهل وصل ضعف البصيرة بالإنسان إلى عدم إدراك النعمة إلّا بفقدانها؟

وهل وصل الجحود بالإنسان إلى النكران فلا يرى إلّا ما افتقد؟

وهل نسينا أن النبيّ محمّدًا عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام قد غيّروا مجرى التاريخ؟! وكان معظمهم لا يملك من حطام الدنيا إلّا ما يسدّ به رمقه، وكانوا يبيتون الأيّام والليالي يعصبون بطونهم من شدّة الجوع.

وهل نسينا أنّهم خرجوا من حياة بدويّة إلى أصقاع العالم ينشرون الإسلام،

ويطوّرون العلوم على أنواعها، ويعمّرون الأرض، ويبنون الحضارات، فشهد لهم العالم بأسره على إنجازاتهم وعلومهم وما حقّقوه في فترة وجيزة من نهضة متميّزة وعمران واسع.

وكلّ ذلك بفضل نعمة الإسلام التي منَّ الله بها عليهم.

ومن نسي النعمة أو غفل عنها، فقد نسي المنعِم.

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾[الحشر: ١٩].

وإذا كان مستحيلًا على الإنسان أن يحصي كلَّ نعم الله عليه، والله تعالى يقرر ذلك في قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]، فهل يُترك ذلك؟

يقول العلماء: «ما لا يُدرك كُلُّه لا يُتْرك جُلُّه، وما لا يُدْرَكُ جُلُّهُ لا يُتْرَكُ قِلُّهُ» (أي بعضه). ومع يقيني بأنّ إدراك جلّ النعم وأكثرها قد يكون صعب المنال على الإنسان عمومًا، فكلّ نعمة مركّبة من نعم، وكلّ جزء من النعمة فيه ما لا يعد ولا يحصى من النعم، وهكذا دواليك. ومع يقيني بصعوبة الإحاطة ببعض هذا الموضوع، إلّا أنّي رأيت من واجبي، وأنا غير متخصّص في العلوم الشرعية، أن ألفت النظر وأذكِّر ببعض ما استوقفني فيه، ليكون مدخلًا إلى التفقّه في نعم الله علينا.

وكما في العلوم العامّة، كلّما ازداد علم المرء ازداد إدراكه بأنّ ما ينقصه أكثر، وكلّما تعمّق باحث في بحث علمّي أدرك أنّ ما يخفى عليه أعظم. كذلك في نعم الله، كلّما ازداد تفكّر الإنسان في نعمة معيّنة أدرك أنّ فيها من النعم ما لا يعدّ ولا يحصى، وأنّ إدراكه ليس إلّا نزرًا يسيرًا لما أحسّ به في هذه النعمة.

وقد رأيت تبويبه في ثلاث مجموعات أو أبواب:

المجمـــوعة الأولى: وتـــضم نعمة الخلق، وفيها خلق الإنسان في الطور الأوّل والطور الثاني، وما استودع الله تعالى فيه من عجائب صُنعه، وخلق الكون وما فيه من آلاء الله ونعمه، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، ودعانا إلى التفكّر فيها حتى ندرك أسرارها ونواميسها، وحتى نعقل كيف سخّرها كلّها للإنسان ليكون خليفة في الأرض.

المجموعة الثانية: نعمة الإيمان، وهي الوعاء الجامع والإطار الشامل والذي يدرك الإنسان به فلسفة وجوده في الحياة فيعرف خالقه، ويفهم الهدف من خلقه، والغاية التي من أجلها جاء إلى الدنيا، والرسالة العظمى التي عليه أن يسعى إليها. وبنعمة الإيمان يدرك الحقوق والواجبات والحلال والحرام والمثل والقيم التي تحكم مساره: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ **[المؤمنون: ١١٥]**.

المجموعة الثالثة: وتضمّ النعم الخاصّة التي أنعم الله بها على كلّ إنسان في ذاته بِقَدَرٍ، كنعمة المال والزوجة الصالحة والذرية الصالحة والصحة والجمال والنسب والعلم وما إلى ذلك، وكلّها من زينة الحياة الدنيا، شرعها الله لنا متاعًا حلالًا طيبًا، وكلّنا قد أخذ منها أو من بعضها قدرًا أو نصيبًا.

فأمّـــا المجمـــوعة الأولى، وهي نعمة الخلق: فقد أنعم الله بها على جميع خلقه على حدّ سواء، المؤمن والكافر، الضعيف والقويّ، الغنّي والفقير. فكلّ إنسان يحيا بها، ولنا جميعًا شرف الانتماء إلى أبينا آدم، وقد أودع الله عزّ وجلّ القدرة على التكاثر عند جميع خلقه، وسخّر لهم جميعًا سائر آلائه الكونيّة من ماء وهواء وشمس وقمر وليل ونهار، وجميعهم ينعم بذلك من دون فرق أو تمييز.

أما المجموعة الثانية، وهي نعمة الإيمان بأصوله وأركانه ومبانيه: فقد يسّرها الله لجميع الناس، وفطرهم عليها، وأرسل الرسل مبشّرين ومنذرين للدعوة إليها، كما أنزل الكتب السماويّة لتكون للناس شريعة ومنهاجًا. فأخذ كلّ فرد منها نصيبًا كما أراد، والله يدعوه دائمًا إلى المزيد ويشجّعه عليه. كما وضع الله للإنسان طريق

الاستزادة والحوافز التي تساعد على ذلك، فلبَّى من لبَّى، وأبى من أبى، ومن لبَّى كان على درجات، وكلٌّ كما أراد.

أمّا المجموعة الثالثة، وهي النعم الخاصّة: فلقد أعطى الله عموم الناس من كلٍ منها جزءًا معلومًا، وجعل الناس بعضهم فوق بعض درجات، ليبلوهم (أي ليمتحنهم) في ما آتاهم، وجعل فيهم الشهوة نحو المزيد، والعقل لاختيار المسلك الرشيد.

وفقه كلّ نعمة من نعم الله يقتضي التفكّر في أصلها، وحفظها وتنميتها والنفع منها في النفس والمجتمع، كما يقتضي الشكر عليها، شكرًا لا يخالطه رياء، ولا طمع ولا كبرياء ولا حسد، شكرًا خالصًا للمنعم الأوّل، وهو الله عزّ وجلّ، شكرًا يليق بجلاله كخالق ومنعم وهو العزيز الحكيم، وهو الغنيّ الحميد.

ليس هذا فحسب، بل من فقه النعمة أن ندرك أسرار تكامل نعم الله علينا، وهذا باب واسع للبحث والتفكر والتدبر وفيه من التفاصيل ما يعجز عنه باحث وحكيم، وما يستوجب إلمامًا بعلوم مختلفة، وأرجو أن يعمل عليه الباحثون لاستخراج مكنوناته.